

## إشارات المتقدمين إلى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم

الدكتور محمد باقر حجي / استاذ جامعة طهران  
الدكتور هارون نوح معايدة / باحث

وقد اردت بهذه المقالة تتبع الإشارات إلى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم عند علماء اللغة ودارسي إعجاز القرآن الكريم من القرن الثالث وحتى القرن السابع الهجري، وبيان وجهة نظرهم وتعليقهم للسبب الذي أدى إلى هذه الموسيقى، وبيان وجه الاتفاق والاختلاف بينهم وما زاده اللاحق على السابق في هذا الموضوع، وبذلك كله يستطيع القارئ للقرآن الكريم أن يدرك المزية التي بها فاق القرآن الكريم غيره من النصوص الأخرى في هذا الجانب، وأن يتلمس هذه الناحية من نواحي إعجاز القرآن الكريم المتعددة.

واسميت دراستهم لهذا الموضوع بالاشارات - مع أن بعضهم قد تعرض له بوضوح - من باب التغليب إذ أن أكثرهم اشار له اشارة موجزة في طي كلامه عن الإعجاز.

وكانوا اذا تحدثوا عن القرآن شهدوا أن له وقعاً في التفوس غير ما للشعر والنشر، فلا هو شعر ولا هو نثر مألف.

كانت السليقة العربية تقول لهم هذا أفحص الكلام وأحلاه ونقل هذا عن مؤمنهم وكافرهم.

وبالسليقة كان العرب يعرفون سليم القول من ملحونه وفصيح الكلام من ركيكه، وموزون الشعر من غيره.

ولما احتاج العلماء إلى وضع قواعد للغة العربية

من المعلوم في السيرة النبوية أن الكثير من العرب اسلموا بمجرد سماع القرآن الكريم، وأن القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تحدى الإنس والجنة أن يأتوا بمثله فما استطاعوا وتنازلوا إلى عشر سور مما استطاعوا، وتنازلوا إلى سورة واحدة مما استطاعوا، مع أن بعض سور القرآن لا تزيد على كلمات معدودة، والعرب فيهم الفصحاء إذا تكلموا والبلغاء إذا قرؤوا الشعر وكلامهم محصور بالنشر والشعر.

وذلك على أساس أن الأشياء لا تعرف إلا بآلياتها فلا يعرف التلائم إن لم يعرف التناقض الذي أ مثلته كثيرة في الشعر والنشر وليس له مثال واحد في القرآن الكريم. والعلماء الذين سأدرس آثارهم هم: الجاحظ، والرماناني، والخطابي، وابن رشيق، والخفاجي، والجرجاني، والبغدادي، وأسامة بن منقذ، وابن الأثير، وابن أبي الأصبع، وحازم القرطاجي.

أولاً: الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني

(١٦٣ - ٥٢٥٥)

وأشار الجاحظ إلى الموسيقى الصوتية وأهميتها فقال «أجدد الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»<sup>(١)</sup>. ونرى أنه أرجع هذه الجودة إلى كون الكلام (متلاحم الأجزاء) أي أنه من بدايته إلى نهايته شيء واحد وليس فيه ما هو أجنبي يفرق أجزاءه، ويوضح ذلك بقوله: «سهل المخارج» أي أن هذه الوحدة والتلاحم بين أجزاء الكلام من حيث كونه كله ذا مخارج سهلة.

وهو بهذا يشير إلى أحدى الجهاتتين اللتين ينظر من خلالهما إلى موسيقى الكلام وهو سهولة التلفظ به، ولم يفصح عن الأخرى وهي كيفية وقوعه على الأسماع. وهذه على ما أظن هي بداية في الحديث عن الموسيقى الصوتية للتصوّص العربي عند علماء اللغة ونقارها.

ثانياً: الرماناني، أبو الحسن علي بن عيسى (٢٩٦ - ٣٨٤)<sup>(٢)</sup> عرف الرماناني البلاغة بأنها: «ايصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»<sup>(٢)</sup> وقسم الكلام من حيث حسن صورة اللفظ إلى ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا<sup>(٣)</sup>.

استنبطواها بالاستقراء من كلام العرب وأرادوا بذلك خدمة القرآن الكريم وبيان تميزه عن كلام الناس فوضعوا قواعد النحو والصرف، وعرفوا أوزان الشعر وهذه في الحقيقة أمور منضبطة أمكن الوقوف عليها بعد جهد، أما الفصاحة والبلاغة والجرس الخاص بعذب الكلام فكان ضبطه غير سهل لأنه يتوقف على الذوق والسلبية ومع ذلك وضعت فيه قواعد مهمة عرف من خلالها بعض أسرار اعجاز القرآن وتتفوّقه على غيره وعدم امكان محاكاته ومن جملة ما اهتم به العلماء في هذا المجال التعرف على سر عذوبة الفاظ القرآن وسلامة اسلوبه وحلوته وقعه في الآذان والقلوب، وهو ما اطلق عليه المحدثون اسم (الموسيقى الصوتية).

وكلمة «موسيقى» هنا لها مفهوم أوسع وأشمل من المعنى المتداول إذ أنها بالمعنى المتداول ينظر إلى حسن وقوعها على الأذن فقط دون النظر إلى سهولة وصعوبة أدائها على الآلات، ولكنها هنا ينظر إلى الأمرين معاً حسن وقوعها على الأسماع وسهولة اجرائها على اللسان.

ولا بد لي من التذكير بأن لفظ الموسيقى الصوتية لم يرد في كتب وأبحاث العلماء الذين درست آثارهم، وإنما الذي ورد فيها ألفاظ أخرى كانت مستعملة في عصرهم مثل: الفصاحة، أو البلاغة، أو التلائم، أو حسن اللفظ، أو الائتلاف والجودة. وكل هذه الألفاظ قد صدوا بها حسن وقع الصوت الناجم عن النص الأدبي سواء أكان قرآن أم غيره على الأسماع وسهولة نطقه والتلفظ به على الألسن، وإنما عبرت عنه هنا بالموسيقى الصوتية لأنه التعبير المتداول المستعمل في أيامنا هذه.

وأذكر أيضاً أنه وإن كان بعض العلماء الذين سندرس أقوالهم في هذا الموضوع قد كتبوا عن الشعر أو النثر أو عنهم إلا أنهم قد صدوا من ذلك القرآن الكريم،

وفي القرآن بشكل عام، وذلك عندما قسم الكلام إلى ثلاثة طبقات، أعلاها: طبقة الكلام البليغ الرصين الجزل، وأوسطها: طبقة الكلام الفصيح القريب السهل، وأدنها: طبقة الكلام الجائز الطلق الرسل<sup>(١٢)</sup>.

ويرى الخطابي أن القرآن الكريم قد حاز على هذه الأقسام الثلاثة فقال: «فانتظم له بامتزاج هذه الاوصاف نحط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعدوبة»<sup>(١٣)</sup> وهذا برأيه السبب في الواقع الجميل للقرآن عندما سمعه العرب، يقول الخطابي: «كانوا يجدون له وقعا في القلوب وقرعا في النفوس يرثبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الإعتراف، لذلك قال قائلهم: «إن له حلاوة وإن عليه طلاوة»<sup>(١٤)</sup>.

ونلاحظ أن: ي كلام الخطابي - وإن كان عاماً - إشارات إلى الموسيقى الصوتية من خلال وصفه للقرآن بأن يجمع صفتى الفخامة التي تكون في نطق الألفاظ، والعدوبة التي تكون في سماعها، ولكنه لم يوضح كيف تكون الألفاظ فخمة وعدبة إلا من خلال كلام عام وهو امتزاج تلك الطبقات الثلاث التي لم يحدد أصلاً معالملها بدقة، وبهذا فإنه لم يخطُ إلى الإمام أي خطوة في هذا الموضوع.

#### رابعاً: ابن رشيق، الحسن الفيرواني (٣٩٠-٤٦٣ هـ)

فضل ابن رشيق الشعر على النثر وذلك لوجود الوزن فيه فالكلام المنثور كما قال: «إذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية، تألفت اشتاته، وازدوجت فرائده وبناته»<sup>(١٥)</sup>. بينما الكلام المنثور مبدد في الأسماء. وهذا الوزن الذي يحول به الكلام المنثور إلى شعر يجعل كما يقول: «قراطه الآذان، وقلائد الأعناق، وأمانى النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن ويحبىء في القلوب، ممنوعاً من السرقة والغصب»<sup>(١٦)</sup>. والوزن هو الذي ينتج الموسيقى التي يحسن بها وقع الكلام على الأسماء.

وقد بين الرمانى هذه الأقسام فقال: «التلائم نقىض التناحر»<sup>(١٧)</sup> ثم زاد التلائم أيضاً بقوله: «التلائم تعديل الحروف في التأليف»<sup>(١٨)</sup>، ويقصد بتعديل الحروف أن لا تكون مخارج حروف الألفاظ شديدة البعد أو القرب<sup>(١٩)</sup> وضرب على ذلك أمثلة، أما المتناحر فمثاله:

(وقبِرِ حرب بمكان قفر

وليس قرب قبر حرب قبرا)<sup>(٢٠)</sup>

وأما المتلائم من الطبقة الوسطى فمثل له بالأبيات التالية:

(رمتني وستر الله بياني وبينها

عشية آرام الكناس رميم)

(رميم التي قالت لجيران بيتها

ضمنت لكم ألا يزال يهيم)

ألا رب يوم لو رمتني رميتها

ولكن عهدي بالنصال قديم)<sup>(٢١)</sup>

والتلائم من الطبقة العليا فمثاله عنده هو القرآن كله<sup>(٢٢)</sup> ويشير إلى كيفية معرفة الكلام المتلائم بأن ذلك «يظهر بسهولة على اللسان، وحسنه في الأسماء، وتقبله في الطباع»<sup>(٢٣)</sup>.

وبذلك نرى أن الرمانى قد أشار إلى أن الموسيقى الصوتية في الكلام تنتج عن تلائمه، هذا التلائم الناتج عن عدم القرب الشديد أو البعد الشديد في مخارج الحروف، ومن خلال الأمثلة التي ضربها على ذلك نلاحظ أنه يقصد أن يكون ذلك التلائم في كلمات الجملة مع بعضها في حال التركيب لا في ألفاظها حال الإفراد فقط، وهذا ما أشار إليه الجاحظ بقوله: «متلائم الأجزاء». وإن هذا التلائم إذا ما وجد أدى إلى سهولة النطق بالكلام وإلى حسن وقوعه على الأسماء.

ثالثاً: الخطابي، حمد (أو أحمد) بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي (٣٨٨-٣١٩ هـ)

اشار الخطابي إلى الموسيقى الصوتية في الكلام

تقارب مخارج الحروف فقط وإنما أيضاً عن تكرارها. وأنه يتحقق مع سابقيه بأن هذا التلازم يجب أن يكون في الألفاظ والتركيب معاً لا في الألفاظ وحدها، وهذا ما رأيناه عند بيانه لسبب التناقض في الأمثلة التي ذكرها.

خامساً: **الخفاجي**، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان (٤٢٣ - ٤٦٦)

عَرَفَ الْخَفَاجِيُّ الْكَلَامَ بِأَنَّهُ: «مَا انتَظَمْتُ مِنْ حِرْفَيْنِ فَصَاعِدَا مِنْ الْحُرُوفِ الْمُعْقُولَةِ»<sup>(٢٢)</sup> وَقُسِّمَ إِلَى قَسْمَيْنِ: الْأَوَّلُ: مُتَلَاثٌ، وَالثَّانِي: مُتَنَافِرٌ، وَيُرَى أَنَّ هَذِيْنِ الْقَسْمَيْنِ لَهُمَا دَرَجَاتٌ فَيَقُولُ: «وَقَدْ يَقُوْلُ فِي الْمُتَلَاثِ مَا بَعْضُهُ أَشَدُ تَلَاثَمًا... كَمَا يَكُونُ فِي الْمُتَنَافِرِ مَا بَعْضُهُ أَشَدُ فِي التَّنَافِرِ»<sup>(٢٤)</sup>. وَيُوضَعُ الْمَقْصُودُ مِنْ الْمُتَلَاثِ وَالْمُتَنَافِرِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ، فَيُرَى أَنَّ «الْمُتَلَاثَ يَحْصُلُ عِنْدَمَا يَتَجَنَّبُ النَّاظِمُ تَكَرَّرُ الْحُرُوفِ الْمُتَقَارِبةِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ»<sup>(٢٥)</sup>، وَأَمَّا التَّنَافِرُ فَلَا يَجِدُهُ فِي تَبَاعُدِ مُخَارِجِ الْحُرُوفِ ضَارِبًا عَلَى ذَلِكَ مَثَلًاً وَهُوَ كَلْمَةُ (أَلْم) الَّتِي تَبَاعَدَتْ مُخَارِجُ حُرُوفِهَا وَهِيَ غَيْرُ مُتَنَافِرَةٍ<sup>(٢٦)</sup>.

ويزيد الأمر وضوحاً عندما يقول «ليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصيناً أو فناً أحسن من تسميته عسلوجاً مع ما لحرروف هذه الكلمة من التباعد... وللكلمات: العذيب (اسم موضع)، وعذيبة (اسم امرأة)، وعذب، وعذاب، وعذب، وعذبات، ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ من التأليف، وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكن تأليف مخصوص مع البعض، ولو قدمت (الذال) أو (الياء) لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم (العين) على (الذال)»<sup>(٢٧)</sup>، وأرى أنه يقصد بالتأليف المخصوص كون الكلمة تكونت من حروف تباعدت مخارجها مع كون مخارج حروفها مرتبة من الداخل (الحلق) إلى الخارج (الشفتين).

ثم يذكر قول الجاحظ وهو: «أن أجود الشعر ما رأيته متلاحِمُ الْأَجْزَاءِ، سهلُ الْمُخَارِجِ...» ثم يعلق عليه بقوله: «إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سمعاه، وخفَّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلَّ في أذن سمعه، فإذا كان متناهراً متباهياً عسر حفظه، وشق على اللسان النطق به، ومجته المسماع فلم يستقر فيها منه شيء»<sup>(١٦)</sup>.

وزاد قوله ايساطات عندما بين كيف يكون الكلام متناهراً بقوله: «وَمِنْ الشِّعْرِ مَا تَقَارِبُ حُرُوفُهُ أَوْ تَكَثُرُ، فَتَنَقَّلُ عَلَى الْلِّسَانِ»<sup>(١٧)</sup> وضرب على ذلك أمثلة، أما الثقل أو التناقض الناتج عن تقارب مخارج الحروف بممثل له ببيت ابن بشير:

(لَمْ يَضُرْهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شَيْءٌ)  
وانشأ نحو عزف نفس ذهول<sup>(١٨)</sup>  
فرأى أن الشطر الثاني من البيت ثقيل، وذلك لقرب (الحاء) من (العين) وقرب (الزاي) من (السين)، أي من ناحية المخارج.

وأما الثقل الناتج عن تكرار الحروف فمثاله عنده،  
(وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانِ قَبْرٍ)

فرأى أن الألفاظ تكررت والحرروف تكررت حتى صار ألقية<sup>(٢١)</sup> يختبر بها الناس، ولا يقدر أحد أن ينشده ثلاث مرات إلا عشر لسانه فيه وغلط<sup>(٢٢)</sup>.

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نقف على وجهة نظر ابن رشيق بالنسبة للكلام الذي يعذب النطق به ويؤذن سمعاه وهو الكلام الذي تلاحمت وتلائمت أجزائه وسهل النطق به نتيجة عدم تكرار حروف ألفاظه أو تقارب مخارجها، فإذا ما زيد على ذلك الوزن كان أغذب وأذلاً.

ونرى أنه بني وجهة نظره على قول الجاحظ كما فعل الرمانى إلا أنه زاد عليه بأن التناقض لا ينتج عن

والقرب الشديد المؤدي إلى التناقض والتي تحدث عنها الرمانى وابن رشيق فأيداهم على ان التقارب الشديد يؤدى إلى عدم السهولة في النطق، وبين أن البعد الشديد في المخارج ليس كله يؤدى إلى التناقض بل بعضه متلائم لافتراضه بترتيب مخصوص لمخارج الحروف.

كما أنه اتفق إلى حد ما مع ابن رشيق الذي قال بأن التناقض ناتج عن تكرار الحروف عندما قال - الخفاجي - أن تكرار الحروف المتقاربة المخارج يؤدى إلى التناقض فشمل قوله قول ابن رشيق وزاد عليه الحروف الأخرى متقاربة المخارج. كما نرى أنه يتحدث عن الألفاظ المفردة دون التركيب كما هو الحال عند من سبقوه، إلا إذا كان يقصد التركيب من ترداد الكلمات المتلائمة المؤدية إلى ارتفاع درجة التلائم في الكلام.

ولا يفوتنى أن أذكر أن سبب مخالفة الخفاجي للرمانى في تقسيمه الكلام إلى قسمين بدلًا من ثلاثة - كما هو الحال عند الرمانى - قوله: «لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار في هذه القضية»<sup>(٢٢)</sup> هو أنه يرى أن وجہ الأعجاز هو الصرفة<sup>(٢٣)</sup> وليس الفصاحة<sup>(٢٤)</sup>، ومن هنا جعل كلام فصحاء العرب مساوياً لفصاحة القرآن وذلك - في رأيه - لأن الفصحاء إذا ما استعملوا قواعد الفصاحة الميسرة لديهم استطاعوا الوصول إلى طبقة عالية من التلائم الموجودة في القرآن.

سادساً: الجرجانى، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (..... - ٤٧١ هـ)

يوضح الجرجانى موقفه من الناحية الموسيقية بقوله: «وهذه شبهة أخرى ضعيفة عسى أن يتعلق بها متعلق من يقدم على القول من غير روية، وهي أن يدعى لا معنى للفصاحة سوى التلائم اللغظي وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تتشقق

كما أنه ذكر عاملاً آخر يؤدى إلى التناقض وهو كثرة حروف الكلمات، إذ أنه يرى أن الكلمات كثيرة الحروف سيئة الوقع على الآذان، ومثل لذلك بقول أبي تمام: (فالأذربیجان اختیال بعدما كانت معرض عبرة ونکال)

وقول المتنبى:

(إنَّ الْكَرِيمَ بِلَا كَرَامَ مِنْهُمْ  
مِثْلَ الْقُلُوبِ بِلَا سُوِيدَاوَاتِهَا)<sup>(٢٨)</sup>  
فرأى أن كلمتي (أذربیجان) وكلمة (سویداواتها) قد قبحتها وخرجتا من وجوه الفصاحة لكثرة حروفهما<sup>(٢٩)</sup>.

كما أنه يرى أن الكلمات المتلائمة إذا ما توالت زاد حسن الكلام فقال: «إذا ترددت الكلمات المختارة - يعني ذات التأليف المخصوص - فيوجد الحسن فيه - أي الكلام - أكثر وتزيد طلاوته»<sup>(٣٠)</sup>. كما بين أن الكلمات ذات الحروف الكثيرة إذا ما ترددت وتتوالت - مهما كانت تشيكيلة أصواتها - في التأليف يكون القبح أجلى من مرور كلمة واحدة كثيرة الحروف<sup>(٣١)</sup> وكذا سائر الكلمات المتناقضة. ولعل هذا هو السبب في كون الكلام المتلائم والمتناقض له درجات كما اشار هو إلى ذلك في بداية الكلام.

من خلال كلام الخفاجي نرى أن التلائم الذي يؤدى إلى خفة النطق على اللسان وعذوبة الكلام في الآذان هو أمر ناتج عن العوامل التالية، وهي: عدم تكرر الحروف المتقاربة في الكلام، وبعد مخارج حروف الكلمة الواحدة مع ترتيبها على شكل مخصوص، وعدم كثرة حروف الكلمة الواحدة. وأن الكلام يكون أشد تلائماً إذا ما توالت الألفاظ المتلائمة في الكلام.

وإذا ما خلت الألفاظ من هذه العوامل كان الكلام متناقضاً ثقيلاً في النطق سيء الوقع على السمع.  
ونلاحظ أن الخفاجي قد ضبط مسألة البعد الشديد

الوحشى ثقيل في السمع وغير ذلك من الصفات التي ذكرها ولعله ترك ذلك للذوق.

ونرى أن موقفه من هذه القضية قريب من موقف الخطابي الذي كان كلامه عمومياً أيضاً إلا أنه أوضح هنا السبب الذي أدى إلى الاستفادة من طبقات الكلام التي ذكرها الخطابي وهو مناسبة المقال للمقام، ولعله أيضاً بهذا يكون أخذ بعين الاعتبار كلام الجرجاني - الذي رفض أن تكون المزية في الكلام تعود إلى اللفاظ بل هي في المعانى - دون أن يردّ أقوال السابقين الذين جعلوا المزية في الألفاظ، فكان موقفه جاماً بينهم.

ثامناً: ابن منقد، أسامة بن مرشد بن علي بن منقد  
(٤٨٨ - ٥٨٤ هـ)

اشار ابن منقد إلى الناحية الصوتية اشارة موجزة وذلك عندما طلب أن نقصد الكلام الجزل دون الرذل، والعذب دون الجهم<sup>(٤٣)</sup>، وطلب أن يجعل المعنى الشريف في اللفظ الطريف<sup>(٤٤)</sup>.

وبهذا فإنه لم يخط خطوة إلى الأمام في هذا الموضوع وكان كلامه قريباً من البغدادي.

تاسعاً: ابن الأثير، الكاتب نصر الله بن محمد  
(٥٥٨ - ٦٣٧ هـ)

بيّن ابن الأثير أن الفصاحة هي: «حسن اللفظ لا حسن المعنى»<sup>(٤٥)</sup>، وبين كيف يكون اللفظ حسناً فصيحاً فقال: «ثبت أنَّ الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين. وإنما كان ظاهراً بيّناً لأنَّه مألف الاستعمال، وإنما كان مألف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع إنما هو اللفظ، لأنَّ صوت يتألف عن مخارج الحروف، فما استندَه السمع منه فهو الحسن»<sup>(٤٦)</sup> وبنه إلى أن الكاتب إذا ما أراد أن يكتب فلا بد له من ثلاثة أمور: «الاول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم الالائى المبددة، فانها

على اللسان كالذى أشده الجاحظ من قول الشاعر:  
(وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانِ قَفْرٍ

وليس قَبْرٌ قَبْرٌ حَرْبٌ قَبْرٍ)<sup>(٣٥)</sup>

وهو بهذا يقطع الطريق على من يريد أن يبحث في اهتمامه بالناحية الصوتية في كتابه فيبطل كون الموسيقى الصوتية هي التي تحدد المزية والتقوّق في النص القرآني أو غيره من النصوص.

ويؤكّد على هذا المعنى حين يحدد أن المزية في النصوص تعود إلى المعانى فيقول «وانها - أي المزية - من حيز المعانى دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حين تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل روئتك وتراجع عقلك، وتستتجد في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه»<sup>(٣٦)</sup>.  
ونرى مما سبق من حديث الجرجاني أنه يرد في كلامه على جميع من سبقوه من جعلوا المزية في الألفاظ دون النظر إلى المعنى.

سابعاً: البغدادي، أبو طاهر عبد القاهر بن طاهر  
(..... - ٥١٧ هـ)

عرف البغدادي البلاغة بأنها «اللفاظ يعبر بها عن معانٍ»<sup>(٣٧)</sup> ووضع شروطاً لهذه الألفاظ حتى تكون بلغة وهذه الشروط نوعان: إيجابي: وذلك أن تكون الألفاظ «سمحة سهلة، لها حلاوة وطلاؤة، وعليها رونق الفصاحة»<sup>(٣٨)</sup>. وأما الشروط السلبية فهي: «الخلق عن البشاعة»<sup>(٣٩)</sup>، وأن يكون اللفظ «لا متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً عامياً»<sup>(٤٠)</sup> ويحدد معنى الوحشى بقوله: «المتروك استعماله، الثقيل في المسمع»<sup>(٤١)</sup>.

كما ذكر بأن يكون المقال مناسباً للمقام، وذلك بقوله -للشاعر -: «أن يتلطّف إذا تغزّل، ويفحّم إذا افتخر»<sup>(٤٢)</sup>.  
ونلاحظ أن كلام البغدادي كان عمومياً فهو لم يحدد الأساس الذي عليه تكون الألفاظ سمحّة سهلة، أو لها حلاوة وطلاؤة، ولم يحدد السبب الذي يجعل اللفظ

حال الأفراد بل يجب مراعاة ذلك أيضاً حال التركيب بل إنه قد يغض النظر عن كونها غير فصيحة حال الأفراد إذا ما كانت في حال التركيب أنساب من غيرها.

وهو في مراعاة الفصاحة أو الموسيقى حال التركيب يكون قد أوضح عن ما جاء على شكل اشارات عند غيره مثل الجاحظ، والرمانى وابن رشيق، والخاجي.

عاشرًا: ابن أبي الأصبع، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم (٥٦٤ - .....)

وأشار ابن أبي الأصبع في بداية كلامه عن الأمور التي يجب مراعاتها في الكلام ليصبح سهلاً على اللسان وعذباً في الآذان أي له موسيقى متناسقة غير مشوشة فقال: «من ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزاً إذا كان المعنى فحماً، ورقيناً إذا كان المعنى رشيقاً، وغريباً إذا كان المعنى غريباً بحثاً، ومستعملأً إذا كان المعنى مولداً محدثاً»<sup>(٥٠)</sup>. ويبيّن كيفية هذا الائتلاف فيقول: «إن الائتلاف من جهة ما قدمنا من ملائمة الغريب للغريب المستعمل للمستعمل، لا من جهة المعنى بل ذلك من جهة اللفظ»<sup>(٥١)</sup>.

ويبيّن أن تباعد مخارج الحروف عامل مهم في سهولة الكلام (أي الناحية الموسيقية) وذلك عندما يتعرض للأية الكريمة «لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك» (المائدة: ٢٨) حيث قدم ما تدعى إليه الفعل بواسطة حرف الجر (إلى) على ما تدعى إليه الفعل بنفسه (يدك) وعلل ذلك فقال «لئلا تتواتي ثلاثة أحرف متقاربة المخارج فيثقل الكلام بسبب ذلك؛ فلو جاء الكلام فيه مرتبأ لغيل: (لئن بسطت يدك الي) والطاء والتاء والياء متقاربات المخارج»<sup>(٥٢)</sup>.

ثم بين أن الكلام إذا ما روّعي فيه الصفات السابقة من مناسبة المقال للمقام، ومراعاة المخارج حاز الكلام صفة الحسن فكان - كما قال - «متحدراً كتحدر الماء

تتخير وتنتقى قبل النظم، والثاني: نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، والثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام»<sup>(٤٧)</sup>، ثم يقول: «الأول والثاني من هذه الثلاثة هي المراد بالفصاحة»<sup>(٤٨)</sup> وهو باخراجه الثالث المتعلق بالمعنى يؤكّد قوله بأن الفصاحة حسن اللفظ لا حسن المعنى، وإن كان المعنى مهمًا.

ويشير ابن الأثير إلى جانب آخر يجب مراعاته عند التأليف وهو أن بعض الكلمات قد تكون في حال الأفراد أقل فصاحة من غيرها، ولكنها عند التركيب تصبح أوضح من غيرها، ويمثل لذلك بالأية الكريمة «تلك إذا قسمة ضيزي» (النجم: ٢٢) وأن كلمتي «جائرة» و«ظالمة» أكثر حسناً من (ضيزي) على الأفراد لكنهما لا تستطيعان أن تحلما محلها في الآية القرآنية، ولا ترقيان لمستواها لأنها جاءت على الحرف المسجوع الذي جاءت عليه السورة جميعها وغيرها لا يسد مكانها<sup>(٤٩)</sup>. ونرى أن ابن الأثير بقوله أن الفصاحة في اللفظ يرد ويخالف الجرجاني الذي جعلها في المعنى دون اللفظ. وأن فصاحة الألفاظ عنده تعتمد على الذوق وهو استذاذ السمع لها، دون أن يجعل لذلك سبيلاً مادياً يمكن على أساسه تمييز اللفظ الفصيح من غيره كما هو الحال عند الذين ربطنوا ذلك ببعد أو قرب مخارج الحروف، ولعل ذلك إشارة منه إلى أن السمع فقط هو المدرك للفصاحة ولا علاقة لمخارج الحروف وكيفيتها في فصاحة الكلمة أو عدمها.

كما نرى أنه عندما أوجب على الكاتب أن يختار الألفاظ المفردة أولاً ثم تأليفها مع ما يشاكلها قد وافق الخفاجي الذي قال إن ترادف الكلمات المختاراة سبب في جعل الكلام أكثر تلائماً، ولكن ابن الأثير كان أكثر دقة إذ نبه إلى أنه لا يكفي أن تكون المفردات فصيحة

وهو «ألا تتفاوت الكلم المؤلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون واحدة في نهاية الابتسال والآخر في نهاية الوحشية وقلة الاستعمال»<sup>(٥٧)</sup>.

ويؤكد القرطاجي على أهمية أن يكون اللفظ مستعدناً وإن خفي معناه فيقول: «إن اللفظ المستعد وإن كان لا يعرف الجمهور مستحسن ايراده في الشعر لأنه مع استعداده قد يفسر معناه لمن لا يفهمه ما يتصل به من سائر العبارة»<sup>(٥٨)</sup> ثم يبين ما ينتج في حال كون العبارات والمفردات مفهومة ولكن وقعها في الأذن غير مريح فيقول: «كذلك الألفاظ الرديئة، والتأليف المتناقض وإن وقعت به المحاكاة الصحيحة فإننا نجد السمع يتأنى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها، ويشغل النفس تأدي السمع عن التأثر لمقتضى المحاكاة والتخيل»<sup>(٥٩)</sup>.

وبالتذقيق في كلام القرطاجي نجد أنه استفاد من أقوال كل الذين سبقوه وتكلموا في التلائم أو الموسيقى الصوتية جمع ذلك كله وتنسقه ليخرج بوجهة نظر متكاملة في الأسباب التي تؤدي إلى تلك الموسيقى في النص العربي وهي كما يلي:

أولاً: على صعيد التلائم في اللفظة الواحدة.

يرى أن حروف الكلمة الواحدة يجب أن تكون من حروف مختاراة متباعدة المخارج، وعلى ترتيب خاص. وهذه هي وجهة نظر الرمانى وابن رشيق وأبن أبي الاصبع التي عدلها الخفاجي بإضافة أن البعد ليس سبباً في التناقض إذا ما اقترن بالترتيب الخاص وهو أن تكون مخارج الحروف مرتبة من الداخل إلى الخارج. والتي يفهم منها أيضاً أن القرب الشديد لمخارج حروف الكلمة الواحدة يؤدي إلى اختلاف الموسيقى الناتجة عنها.

ثانياً: على صعيد التركيب وتأليف كلمات الجملة الواحدة.

فرأى أن كلمات الجملة الواحدة بعد أن تكون في حد

المنسجم، بسهولة سبك، وعدوابة ألفاظ، وسلامة تأليف، حتى يكون للجملة من المنشور، وللبيت من الموزون، وقع في النفوس، وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره»<sup>(٥٣)</sup>.

ويختتم ابن أبي الأصبع ذلك فيقول: «صناعة البيان يجب أن يكون المستحسن فيها ما يخص السمع فإنها مختصة بالكلام»<sup>(٥٤)</sup>.

من خلال أقوال ابن أبي الأصبع نلاحظ أنه يتفق مع البغدادي وأسامه بن منقذ في مناسبة المقال للمقام. وأنه يتفق مع ابن رشيق في أن عدم تقارب مخارج الحروف يؤدي إلى سهولة اللفظ.

ومن خلال المثال الذي ذكره فإنه يشير إلى أن مراعاة عدم تقارب مخارج الحروف ليس على مستوى الألفاظ المفردة وإنما أيضاً على مستوى التركيب. وهذا ما أشار إليه من قبل الجاحظ والرمانى وابن رشيق والخفاجي وصرح به ابن الأثير.

وبشكل عام فإن ابن أبي الأصبع لم يخط في هذا الموضوع خطوة إلى الإمام وإنما أعاد ما ذكره سابقه.

حادي عشر: القرطاجي، حازم بن محمد بن حسن،

(٦٠٨ - ٦٨٤)

بين القرطاجي سبب التلائم في الكلام فقال: «والتلائم يقع في الكلام على أنحاء، منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها، وائتلاف جملة كل كلمة مع جملة كلمة تلاصقها، منتظمة في حروف مختاراة، متباعدة المخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما»<sup>(٥٥)</sup>. ويستدرك على ذلك بقوله، «وقد تعدم هذه الصفات أو أكثرها من الكلام وتكون مع ذلك متلائمة التأليف لا يدرى من أن وقع فيها التلائم وكيف»<sup>(٥٦)</sup>، كما وضع شرطاً آخر حتى يكون الكلام حسن الواقع على الأذن.

أم لم تندهم لا يؤمنون» (البقرة: ٦) وجاءت كلمات في القرآن ذات حروف كثيرة مثل قوله تعالى: «فسيكفيكم الله» (البقرة: ١٣٧) وقوله تعالى: «والمؤتفكات» (الحقة: ٩) وقوله تعالى «انزل مكموها» جاء هذا الأمر في القرآن دون أن يسبب تناقضاً أو اضطراباً.

أو لعله أرجع ذلك إلى الذوق والناس مختلفون في الأذواق إلا أنهم كلهم استحسنوا وقوع ذلك في القرآن.

#### الخاتمة:

وهكذا رأينا إشارات علماء اللغة ودارسي اعجاز القرآن الكريم إلى الموسيقى الصوتية للنص القرآني، ووجهة نظر كل واحد منهم، وتعليقه للسبب الذي أدى إلى هذه الموسيقى، ورأينا أيضاً أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وأن هذا الموضوع كغيره من المواضيع يبدأ ببداية بسيطة ثم ينمو ويتطور من خلال تهذيب اللاحق لما جاء به السابق ونقده والزيادة عليه، وبذلك تصبح الدراسة أكثر تعمقاً وأوسع شمولاً وهذا نراه في كيفية دراسة أو إشارة الجاحظ لهذا الموضوع وما وصل إليه عند دراسة حازم القرطاجي لنفس الموضوع.

ومن خلال كلامهم في هذا الموضوع - وبالخصوص ما توصل إليه الخفاجي - نستطيع أن ندرك ونتلمس سر تلك الموسيقى الناتجة عن قراءة القرآن الكريم، وأن تفهم سر مقولته الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن: «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا قصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه ما يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لمثير أعلاه مدقق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»<sup>(٦٠)</sup>.

ذاتها متألفة يجب أن تتلازم وتتألف مع الكلمات الأخرى في نفس الجملة، بأن يراعى فيها ما يراعى في الكلمة الواحدة من التلائم. وهذا ما اشار اليه الجاحظ والرمانى وابن رشيق وأبن أبي الاصبع نوعاً من الاشارة، ونبه عليه الخفاجي وابن الأثير وإن كانوا يختلفان في السبب المؤدي إلى التلائم.

#### ثالثاً: مراعاة الذوق كسبب في التلائم.

إذ يرى أن التلائم قد يحدث مع عدم توفر شروط التلائم وهو بهذا يأخذ بنظر البغدادي وابن منقد اللذين اشارا إلى هذا اشارة وابن الأثير الذي جعل الفصاحة تعتمد على الذوق وتلذذ السمع بأصوات الألفاظ.

رابعاً: الأخذ بعين الاعتبار قاعدة مناسبة المقال للمقام. أو الرابط بين اللفظ والمعنى.

إذ يفهم من قوله: «ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في قدر الاستعمال»، عدم رفضه لنوع من أنواع الألفاظ، وإنما رفضه لاجتماع نوعين في كلام واحد لأن لكل معنى من الألفاظ ما يناسبه، وهذه هي قاعدة مناسبة المقال للمقام التي اشار اليها البغدادي وابن منقد وابن أبي الاصبع بعد أن رفض الجرجاني أن يكون سبب الفصاحة في اللفظ، والذي أدى إلى رد ابن الأثير عليه بأن الفصاحة في اللفظ لا في المعنى، فكان موقعه وسطاً بين الاثنين.

خامساً: نلاحظ أنه لم يشر إلى أن تكرار الحروف سبب في عدم التلائم كما ذهب إليه ابن رشيق والخفاجي، وكذا كثرة حروف الكلمة الواحدة كما ذهب إليه الخفاجي.

وهذا - في رأيي - يرجع إلى تنبيهه إلى وقوع هذين الأمرين في أفسح الكلام وأسهله نطقاً وأكثره عذوبةً القرآن الكريم حيث تكررت (السين) و(الباء) و(الغين) في قوله تعالى: «استغفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (التوبه: ٨١) وتكررت (الهمزة) و(الميم) في قوله تعالى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ

## إشارات المتقدمين إلى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم

### الهوامش

- .١٢٨- المرجع السابق، نفس الصفحة.
- .٢٤- المرجاني، دلائل الاعجاز، ص ٦٠.
- .٢٥- المراجع السابق / ص ٦٥.
- .٢٦- المراجع السابق، قانون البلاغة في قيد النثر والشعر / ص ٢٣.
- .٢٧- المراجع السابق، ص ٢٨.
- .٢٨- المراجعي، قانون البلاغة في قيد النثر والشعر / ص ٢٣.
- .٢٩- المراجع السابق، نفس الصفحة.
- .٣٠- المراجع السابق، نفس الصفحة.
- .٣١- المراجع السابق، ص ٣٤.
- .٣٢- المراجع السابق، ص ١٥.
- .٣٣- ابن منقذ، البديع في قيد الشعر، ص ٢٩٥.
- .٣٤- المراجع السابق، نفس الصفحة.
- .٣٥- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١ / ص ٦٧.
- .٣٦- المراجع السابق، ج ١ / ص ٦٦.
- .٣٧- المراجع السابق، نفس الجزء، نفس الصفحة.
- .٣٨- المراجع السابق، ج ١ / ص ١٤٢.
- .٣٩- المراجع السابق / ج ١ / ص ١٥٧.
- .٤٠- ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص ٧٧، تحرير التحبير، ص ١٩٥.
- .٤١- تحرير التحبير، ص ١٩٦.
- .٤٢- المراجع السابق، ص ٤٥.
- .٤٣- بديع القرآن، ص ١٦٦.
- .٤٤- المراجع السابق / ص ٢٠٤.
- .٤٥- القرطاجي، منهاج اللغة وسراج الأدياء، ص ٢٢٢.
- .٤٦- المراجع السابق / ص ٢٢٣.
- .٤٧- المراجع السابق / نفس الصفحة.
- .٤٨- المراجع السابق، ج ١ / ص ١٤٢.
- .٤٩- المراجع السابق / ج ١ / ص ١٥٧.
- .٥٠- ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص ٧٧، تحرير التحبير، ص ١٩٥.
- .٥١- تحرير التحبير، ص ١٩٦.
- .٥٢- المراجع السابق، ص ٤٥.
- .٥٣- بديع القرآن، ص ١٦٦.
- .٥٤- المراجع السابق، ص ٢٠٤.
- .٥٥- القرطاجي، منهاج اللغة وسراج الأدياء، ص ٢٢٢.
- .٥٦- المراجع السابق / ص ٢٢٣.
- .٥٧- المراجع السابق / نفس الصفحة.
- .٥٨- المراجع السابق، ص ١٢٩.
- .٥٩- المراجع السابق / نفس الصفحة.
- .٦٠- السيوطي، الإنقاذ في علوم القرآن، ج ٢، ص ١١٧.

### المصادر والمراجع:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد، تحرير التحبير، تحقيق حفي شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٢٨٢ هـ . ١٩٦٣ م.
- ٣- ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، تحقيق حفي شرف، مكتبة النهضة، مصر، ط ١٣٧٧، ١٤٢٢ هـ.

- ١- ابن رشيق، العمدة في محسن الشعر وأدابه ونقده، ج ١ / ص ٢٥٧.
- ٢- الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٦، ٧٥.
- ٣- المراجع السابق، ص ٩٤-٩٥.
- ٤- المراجع السابق، ص ٩٤.
- ٥- المراجع السابق، ص ٩٤.
- ٦- المراجع السابق، ص ٩٦.
- ٧- المراجع السابق، ص ٩٥.
- ٨- النكت، نفس الصفحة.
- ٩- المراجع السابق، نفس الصفحة.
- ١٠- المراجع السابق، ص ٩٦.
- ١١- الخطابي، البيان في إعجاز القرآن، ص ٢٦.
- ١٢- المراجع السابق، ص ٢٦.
- ١٣- المراجع السابق، ص ٢٨.
- ١٤- ابن رشيق، العمدة في محسن الشعر وأدابه ونقده، ج ٢٠ / ١.
- ١٥- المراجع السابق، ج ١ / ١٩.
- ١٦- المراجع السابق، ج ١ / ٢٥٧.
- ١٧- المراجع السابق، ج ١ / ٢٦١.
- ١٨- المراجع السابق / نفس الجزء، نفس الصفحة.
- ١٩- المراجع السابق / نفس الجزء، نفس الصفحة.
- ٢٠- المراجع السابق / نفس الجزء، نفس الصفحة.
- ٢١- يقال: القيت عليه القيمة كقولك القيت عليه احتجة (ابن منظور)، مادة لقا، ٢ / ٣١٩) والاحتجة: هي لعبه او اغلوطة يتعاطاها الناس بينهم (ابن منظور، مادة حجا ٢ / ٦٩).
- ٢٢- المراجع السابق / نفس الصفحة ونفس الجزء.
- ٢٣- الحفاجي، سر الفصاحة، ص ٨٨.
- ٢٤- المراجع السابق، نفس الصفحة.
- ٢٥- المراجع السابق، ص ٨٧.
- ٢٦- المراجع السابق، ص ٩١.
- ٢٧- المراجع السابق، ص ٥٥.
- ٢٨- ديوان المنتبى، ج ١ / ص ٣٥٢.
- ٢٩- الحفاجي، سر الفصاحة، ص ٩٧.
- ٣٠- الحفاجي، سر الفصاحة - ١٠٠.
- ٣١- المراجع السابق / نفس الصفحة.
- ٣٢- الحفاجي، سر الفصاحة - ص ٨٨.
- ٣٣- الصرف: أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم وكان مقدورا لهم لكن اعاقهم أمر خارجي. (السيوطى، الإنقاذ ٢ / ٢

## إشارات المتقدمين إلى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم

٤- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد عبد الحميد، مكتبة البابي الحلبي،

القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

٥- ابن رشيق القمياني، العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢ م.

٦- ابن سنان الخناجي، سر الفصاحة، شرح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩ م.

٧- أسماء بن منفذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق بدوي وعبد الحميد، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٦٠.

٨- البغدادي، أبو طاهر، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٩٨١ م.

٩- أجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الاعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧ م.

١٠- حازم القرطاجي، مناهج البلاغة وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن المخوجه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨١ م.

١١- الخطابي، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق خلف الله وسلام، دار المعرفة، مصر، ١٩٧٦ م.

١٢- الرمانى، النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق خلف الله وسلام، دار المعرفة، مصر، ١٩٧٦ م.

١٣- السيوطي، جلال الدين، الانقام في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٣٧ م.